عام

صورة الإنجيل في التفاسير القرآنيّة:

التحرير والتنوير لابن عاشور أنموذجا

(انطلاقا من صورة القرآن يكون الحديث عن الإنجيل)

نجم الدين النفّاتي

باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

تلخيص:

كانت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين منذ ظهور الإسلام علاقة متوترة؛ فكلّ طرف منهما يدّعي امتلاك الحقيقة، ويسعى جاهدا إلى فرضها على الآخر. بحجّة أنّ ما عندي أفضل ممّا عندك... و ما سعينا إلى قراءة صورة الإنجيل في التفاسير الإسلاميّة من خلال اختيارنا لنموذج التحرير والتنوير لابن عاشور إلاّ محاولة لرصد آليات تفكير رجل الدين المسلم، وهو يتحدّث عن كتاب المغاير دينيّا. فكانت النتائج التي وقفنا عندها، أنّ رجل الدين المسلم أثناء حديثه عن الإنجيل ينطلق من صورة القرآن ويعود إليها. فالإنجيل عنده هو صورة مشوّهة من القرآن.

مقدمة:

اهتمّ المسلمون بالديانة المسيحيّة في دراساتهم وفكرهم، وذلك من أجل إثبات كونها الحلقة التي مهّدت لظهور الإسلام. فناقشوا تفاصيلها، وأبدوا رفضا لمقولة، البنوّة والصلب، والخلاص. ولم ينج الإنجيل من تلك الدراسات، بل حظي بما حظي به غيره من المقولات. وسنحاول في هذه الدراسة التعرّض إلى أحد المواقف الذي يمكن اعتباره - بشيء من التجوّز- ملخّصا لكلّ مواقف مفسّري القرآن من الإنجيل، وهو موقف محمد الطاهر ابن عاشور الوارد في تفسيره للنّص القرآني الموسوم ب" التحرير والتنوير". بغية مسألة هذا الحضور، ومحاولة رصد موقف المسلمين إزاء الكتب التي يقدّسها غيرهم ممن يخالفهم دينيا. لمعرفة موقف ابن عاشور من الإنجيل ثمة عدة إشكاليات نرى أنه لابد من الوقوف عندها، ومنها تلك التي تتعلق بالمفهوم، وبالعدد، والوحي، والإلهام وما يثيره هذان المصطلحان الأخيران من التباس وتداخل بين الثقافتين: الثقافة اللاهوتية المسيحية والثقافة الدينية الإسلامية. فهل قدم ابن عاشور قراءة مخالفة؟ وهل نظر في المسألة بعين المميّز بين مقولة الوحي كما هي في الثقافة الإسلامية ومقولة الوحي في المسيحية؟ إضافة إلى عدة إشكاليات أخرى، مثل إشكالية التحريف وعلاقة الإنجيل بالتوراة والقرآن والتبشير بمحمد.

ونروم في نهاية الأمر محاولة الإجابة عن السؤال التالي : هل قدم لنا ابن عاشور الإنجيل كما هو في الديانة المسيحية أم أنه قدم إنجيلا مغايرا؟ هل قام بعملية تغطية لمسألة الإنجيل أم أنه قام بعملية تعمية؟

1- إشكالية المفهوم:

ما معنى لفظ "إنجيل"؟ وما هو مفهومه أو دلالته لدى ابن عاشور؟ هل نجده حاملا للدلالة نفسها التي عليها في المسيحية؟ لفك هذا الغموض حاولنا تتبع التحديد المفهوميّ لمصطلح "إنجيل" في التحرير والتنوير؛ فعثرنا على تعريف لغوي وتعريف اصطلاحي :

*** الإنجيل لغة:**

يعرف ابن عاشور لفظ "إنجيل" على أنه "اسم معرب وأصله أثانجيليوم"؛ أي "الخبر الطيّب" ومدلوله مدلول اسم الجنس، ولذلك أدخلوا عليه حرف التعريف... وفي اليونانية "أوانجليون"؛ أي اللفظ الفصيح".[1]

[1]- ابن عاشور محمد الطاهر، **"التحرير والتنوير"**، الدار التونسية للنشر، ج 3 ص 149

وما نلاحظه من خلال هذا التعريف أنّ ابن عاشور قد وافق التعريف المسيحي للفظ "إنجيل" في مستوى أنّ الإنجيل يعني "الخبر الطيب أو السار"، ولكن لو تجاوزنا المنطوق به في هذا المستوى إلى المستوى العميق أو المسكوت عنه، سنجد أن الأمر على خلاف ما ذهبنا إليه. فهل قدم لنا ابن عاشور توضيحا لهذا "الخبر السار". فإذا كان الإنجيل يعني "الخبر الطيب"، فإن السؤال المطروح: ما هو هذا الخبر الطيب؟ هل أن كلّ خبر طيب مهما كان مجاله يمكن أن نسميه "إنجيلا"؟ أم أن لهذا التعريف حيثياته وملابساته اللاهوتية والتاريخية؟

ورد في "معجم اللاهوت الكتابي" في تعريف الإنجيل ما يلي:

"تدل كلمة "إنجيل" في اللغة اليونانية العامة على "الخبر السار" وبخاصة بشرى انتصار، وكانت الأحداث البارزة في حياة الإمبراطور تعتبر إنجيلا؛ أي بشارة سارة ومع ذلك فلا شك أن فعل "بشر بالإنجيل" اقتبسه الأسلوب المسيحيّ من العهد القديم بالمعنى الخاص الذي كان يفيده في حينه "بشر بالخلاص".[2]

وورد في "قاموس الكتاب المقدس في تحديد مفهوم "الإنجيل" أن هذا "الخبر السار" يتمثل في رواية يوحنا (3، 16) "في أن الله أرسل ابنه الوحيد لخلاص المؤمنين. إنها بشرى الخلاص".[3]

السؤال المطروح لماذا توقف ابن عاشور عند حدود القول "الإنجيل هو الخبر الطيب"؛ فالظاهر أن له دراية بالمسار الايتيمولوجي للفظ "إنجيل"، ولكنه توقف عند هذا الحد، ولم يقدم مزيدا وكأننا بتقنية الاختيار قد حضرت وبشخصية رجل الدين قد تدخلت فغلبت.

*** الإنجيل اصطلاحا:**

إذا كان التعريف اللغوي قد استحضر خلاله ابن عاشور جزءا من التعريف المسيحي لمعنى لفظ "إنجيل" فما هو التعريف الاصطلاحي الذي قدمه؟ وهل نلمس فيه تقاربا بين التعريفين: التعريف المسيحي وتعريف ابن عاشور؟

يعرّف ابن عاشور الإنجيل على أنّه اسم للوحي الذي أوحي به إلى عيسى، فجمعه أصحابه [4] وقد نزل منجما[5] ثم قام الحواريون بتدوينه أثناء حديثهم عن سيرة عيسى[6] فهذا التعريف الذي يقدمه لنا يمثل إسقاطا

---

[2]- **معجم اللاهوت الكتابي** مادة "إنجيل".
[3]- **معجم قاموس الكتاب المقدس** مادة "إنجيل".
[4]- ابن عاشور، م،ن، ج 3 ص 149
[5]- ابن عاشور، م،ن، ج 3 ص 148
[6]- ابن عاشور، م،ن، ج 27 ص 421

لصورة على أخرى؛ أي أنّ ابن عاشور قام بقراءة تاريخ "الإنجيل" على ضوء ما توفر لديه من ثقافة حول تاريخ المصحف في الإسلام:

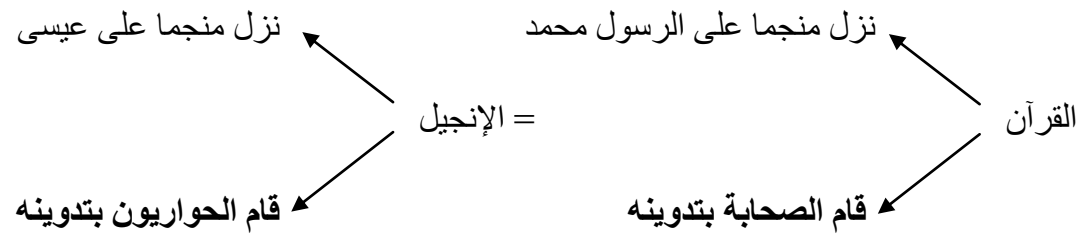

يبدو الأمر لدى القارئ المسلم لا لبس فيه، ما دام يؤمن بأنّ هناك تماثلا كاملا بين الإنجيل والقرآن من حيث كونهما رسالة من الله أوحى بها إلى رسله كي يبلغوها إلى الناس؛[7] فالجيل الثاني من المسلمين والأجيال اللاحقة لم يعرفوا القرآن إلا مصحفا يحتوي سورا وآيات مرتبة ترتيبا نهائيا، فلا غرابة أنّ يتصوّروا الإنجيل على شاكلته، وأن يسقطوا عليه الطريقة التي احتُفظ بها بالرسالة المحمدية على أنها الطريقة الوحيدة الجديرة بالوحي الإلهي.[8]

ولكنّ مفهوم الوحي يختلف بين الديانتين الإسلامية والمسيحية، فإذا كان الوحي في الإسلام قد اتخذ صورته النهائية في القرآن، فإنّ له في الديانة المسيحية تصوّرا مغايرا. فليس الوحي الإلهي عند المسيحيين نصا من النصوص قد أملاه الله على بعض أنبيائه، فيطالع البشر فيه أسماء تسميته وأوامر مشيئته، بل الوحي عندهم هو تاريخ ميثاق يتجدد وتأريخ خلاص ينفذ. إذن، فالوحي الإلهي هو المسيح نفسه وليس الأناجيل الأربعة التي تروي بعض الجوانب من حياته، وتبلغ بعض تعاليمه. لقد كان الوحي يتجلى شيئا فشيئا متطورا، حتى ظهر في كماله في شخص المسيح من خلال مراحل متتابعة من آدم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى يسوع المسيح "فالله بعد أن تكلم تكرارا وبطرق مختلفة بالأنبياء وعلمنا في هذه الأيام الأخيرة بالابن (عبرائين 1/1-3)، فلقد أرسل ابنه الكلمة الأزلي الذي ينير كل إنسان، ليقيم بين البشر ويخبرهم عن خفايا الله. ويسوع المسيح، الكلمة المتجسد والإنسان المرسل إلى الناس يتكلم إذن بكلام الله (يوحنا 34/3) ويتمم العمل الخلاصيّ الذي أعطاه إياه الآب ليعلمه (يوحنا 36/5، 4/17). هكذا يصل الوحي الإلهي عند المسيحيين إلى ذروته في يسوع المسيح نفسه. وسيكون هذا الوحي كاملا حقا عند تجلي المسيح.[9]

لا يكون الحديث عن الكتاب المقدّس في المسيحية مشفوعا بمقولة الوحي كما هو الشأن في الديانة الإسلامية، وإنما يكون الحديث عن مقولة الإلهام (Inspiration) فالمسيحيون يميزون بين المقولتين ونجد في الدستور المجمعي تفسيرا للإلهام الكتابيّ علاقته بالوحي الإلهي: "إن الحقائق التي أوحى بها الله وتحملها أسفار

[7]- عبد المجيد الشرفي، **الفكر الإسلامي في الرد على النصارى**، الدار التونسية للنشر، 1986، ص ص 405-406
[8]- عبد المجيد الشرفي، المصدر نفسه، ص 406
Duquesne (Jacques) : Dictionnaire de la théologie chrétienne, édition Albin Michel, Paris, -1 France, 1996. p 698

الكتاب المقدس إلى الناس قد دونت بإلهام من الروح القدس والكنيسة باعتماد إيمان الرسل، تعتبر كل الأسفار في كلا العهدين القديم والجديد قانونية ومقدسة بكل أجزائها، ذلك أنها كتبت بإلهام الروح القدس، ولذا فهي من وضع الله. وعلى هذا الاعتبار تسلمتها الكنيسة بالتناقل وكي يضع الله هذه الكتب المقدسة، اختار أناسا واستعان بهم، عاملا هو نفسه فيهم وبواسطتهم ليكتبوا، باعتبارهم مؤلفين حقيقيين. استخدموا قواهم وإمكاناتهم، كل ما أراده هو لا شيء سواه".[10]

ولكن رغم الاختلاف في التصوّر للوحي (في الإسلام كلمة الله صارت قرآنا وفي المسيحية الكلمة صارت جسدا)، فإن ذلك لم يقف حائلا أمام ابن عاشور في أن يتحدث عن الوحي المسيحي مستعملا مفاهيمه الإسلامية وخاصة استعماله لمصطلح "التنزيل"، وهو مصطلح نجده مستعملا في الديانة الإسلامية ويندرج ضمن الحقل الدلالي الخاص بمسألة الوحي. فالوحي في التصور الإسلامي يتخذ بعدا عموديا.

الله/الوحي

↓

الملاك

↓

الرسول

↓

الناس

ولهذا تلبّس مفهوم الوحي بمصطلح "التنزيل".[11]

أما الأمر في المسيحية، فيبدو مختلفا تماما إذ يعتقد المسيحيون أن يسوع هو كلمة الله تجلى جسدا. إنه تجسيد الله. وقد حل ابن الله بين البشر ليبلغهم مباشرة دون وساطة نبي أو ملاك، الكلمة الإلهية.

الآب + الابن + الروح المقدس[12]

↓

الناس

فما نخلص إليه هو أنّ ابن عاشور قدم لنا تعريفا مغايرا لمفهوم الوحي كما هو في الديانة المسيحية مع تغافل واضح عن مقولة الإلهام. وكل ما قام به أنه استعمل المفاهيم الإسلامية في تقديم الإنجيل؛ بمعنى أنّه استعمل مفاهيم لها خصوصياتها، فهي لا تنشأ من فراغ، وإنما هي ابنة البيئة التي تنشأ فيها وتكون حاملة لوجه

[10]- م، ن، ص 698
[11]- الغزي (ثامر)، "مقولة الوحي في التصور الإسلامي (مقاربة أنثروبولوجية)" مجلة آداب القيروان، ع2 أكتوبر 1997، ص 28
[12]- المسعودي (حمادي)، "الاحتفاء بالخلق في النصوص الدينية"، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد 19 و20، مركز الانماء القومي، لبنان 1992

من وجوه النمط الثقافي لتلك البيئة. ومثل هذه الأمور تستوقف الباحث وتجعله يتساءل عن خلفيات، مثل هذه الأعمال التي لا يتورط فيها ابن عاشور بمفرده، وإنما السواد الأعظم من علماء الدين والمفكرين المسلمين. فهل يعود ذلك إلى جهل بمفاهيم الديانة الأخرى أم إلى تجاهل لها؟ هل هي سلطة المقدس على فكر رجل الدين أم سلطة التعجب؟ أم إن الأمر يتجاوز هذا وذاك ويكون الأمر وجها آخر هو الرغبة في تصحيح المفاهيم؛ فالآخر لا يعي مفاهيمه والأنا أعرف بها منه؟ كثيرة هي الأسئلة في مثل هذه المطارحات الدينية. ولكن الأمر يبدو لصاحب العقل جليا سافرا، فالمسألة لا تبدو تجاهلا للآخر ولمفاهيمه أكثر منها جهلا.

2- إنجيل واحد وليست أناجيل:

من المشاكل التي تثار عند تتبع صورة الإنجيل في الفكر الإسلامي إشكالية العدد، فلا حديث عن الإنجيل إلا بصيغة الإفراد، فهل نجد اختلافا مع ابن عاشور أم أنه ساير السائد؟ هل قدّم تفسيرا لهذا الأفراد أم أنه اكتفى بتبرير السائد؟

لم يشذ ابن عاشور عن القاعدة فأثناء حديثه عن الإنجيل، لا نجده يتحدّث إلاّ عن إنجيل واحد ولا وجود في حديثه لكلام عن أناجيل. فالإنجيل عنده واحد، وهو الكتاب المقدس الذي أوحاه الله إلى النصارى. وهنا نجد أن الأمر لا يتماشى وما هو متّفق حوله لدى المسيحيين. فالإنجيل في المسيحية أناجيل. فقد اجتمع المسيحيون حول اختيار أربعة أناجيل هي: متّى، ومرقس، ولوقا ويوحنّا، وذلك في القرن الثاني، وقد اعتبرت الكنيسة هذه الكتابات سجلاّت يوثق بها وذات سلطان، إذ تحتوي شهادة الرسل عن حياة المسيح وتعاليمه،[13] وقد سمّيت هذه الأناجيل بالقانونية. وتتضمّن عبارة قانونية فكرة رئيسة مفادها أن مؤلفا أو مجموعة من المؤلفات قد ارتقت إلى مرتبة السيادة، وأصبحت معيارا ينبغي الإقرار بقيمته الملزمة[14] ويعتقد المسيحيون أن هذه الكتب ألفها الله بواسطة إلهام الروح القدس وكتبها بواسطة مؤلفين من البشر أتاح لهم أن يعبروا عن رسالته بطرقهم الخاصة لذا فهي كتب ملهمة، مقدسة تتضمن عناصر الإيمان الأساسية.[15]

وهكذا نخلص إلى أنّ المسيحيين يقرّون بأنّ عندهم أربعة أناجيل في حين أنها في عرف ابن عاشور إنجيل واحد، وفي الحقيقة نجد هذا الإفراد في عرف القرآن وجميع المسلمين وما كان من ابن عاشور إلا أن انتهج السبيل نفسه، وأقر ما هو سائد، ولم يمد القارئ أو المتقبل بتفسير لمثل هذا الاختلاف. فالإنجيل الذي يتحدث عنه ابن عاشور لا يغطي الأناجيل الأربعة المعترف بها في الديانة المسيحية، ولا العهد الجديد، كما اتفق حوله أصحابه، وقد اكتفى كما سبق أن أشرنا بالتقليد. فهل يعود التزام ابن عاشور بصيغة الإفراد عند حديثه عن

[13]- **قاموس الكتاب المقدّس**، مادة "إنجيل".
[14]- القرواشي (حسن)، **مدخل إلى تاريخ المسيحية**، جامعة الزيتونة بتونس سلسلة دراسات تونس.
[15]- القرواشي (حسن)، المرجع نفسه، ص 30

الإنجيل إلى خضوعه إلى سلطة النص القرآني الذي لم يرد فيه الإنجيل إلا مفردا هذا النص الذي "لا ريب فيه" في العقيدة الإسلامية، فكل ما فيه حقائق يقف أمامها المؤمن مستسلما خانعا، ويجد نفسه في تبعية ذلول وسلبية للمفاهيم التي يمليها عليه النص، فتغيب عنه جرأة التجاوز ومغامرة البحث والنقد. فابن عاشور لم يقف عند هذا الإشكال، ولم يحاول البحث عن مبرر لهذا الاختلاف الظاهر بين القرآن والتصورات المسيحية حول عدد الأناجيل. في مقابل ذلك، نجد من الدارسين من بحث في المسألة وحاول تقديم مقاربة تلطف من الاختلاف في هذه المسألة ونذكر من بينهم الأستاذ الحداد في مؤلفه "مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي"، حيث توصل إلى أن الأناجيل الأربعة تذكر أيضا أن الإنجيل واحد أتى يسوع إلى الجليل يدعو بإنجيل الله. قال: "لقد تم الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مرقس 1: 14-15).[16]

"وكان يطوف في الجليل كله، يعلم في جوامعهم ويبشر بإنجيل الملكوت"[17] (متى، 4: 23)، ويقول أيضا: "هذا هو الواقع الإنجيلي : فالأناجيل الأربعة، مع رسائل الرسل الذين يدعون بالإنجيل، تذكر الإنجيل دائما بالمفرد المعلم ! فهو في عرف الأناجيل الأربعة، ودعاة المسيحية، إنجيل المسيح الواحد وإن دونه بأربعة "أحرف" أو نصوص باتفاق المعاني واختلاف الألفاظ بسبب اختلاف البيئات الأربع التي دون الإنجيل فيها.....عن شهادة الأناجيل الأربعة. نعرف إذن، أن الأناجيل واحد بأربعة أحرف" والسؤال المطروح هو لماذا بحث الأستاذ الحداد في المسألة وحاول تقديم تبرير لظاهرة الاختلاف هذه في حين تغافل ابن عاشور عن المسألة وتجاهلها؟ قد تكون الإجابة واضحة، فلكل منهما منطلقاته وغاياته، فإذا كان ابن عاشور ينطلق من قراءة إيمانية يسعى فيها إلى الوفاء لروح النص وبعقلية تقليدية هي وريثة أمينة لعقلية السلف وبعيدة عن مشاغل العصر الحقيقية.[18] فإن غاية الأستاذ الحداد هي الانطلاق من الكتب المقدسة للبحث عن سبل الحوار والإقرار بأن الحوار الإسلامي المسيحي مقولة كتابية وشتان بين الباحث عن التقارب والطارق أبواب الحوار وبين الناظر للحقائق من زاوية واحدة وبعين واحدة.

3- الإنجيل تمهيد للقرآن وخاتمة للتوراة:

بلغ الوحي في العقيدة المسيحية منتهاه وأقصى ما يمكن أن يبلغه الوحي؛ فالله الذي خاطب الناس في القديم عبر الأنبياء خاطبهم في المسيحية عبر ابنه الوحيد، فيكون بذلك الوحي قد بلغ اكتماله ولا وحي بعده فكان بظهور يسوع الحسي طابع فائق : به تم وحي الله الأسمى، وتحقق هذا الوحي بواسطة يسوع، إذ هو الابن "فقد رأى الله وأخبر عنه"[19] فالوحي الذي بدأ في العهد القديم عن طريق الأنبياء يكتمل في العهد الجديد. ولكنه بدلا

[16]- الاستاذ الحداد: **مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي**، ص 136
[17]- الأستاذ حداد، المصدر السابق، ص 137
[18]- الشرفي (عبد المجيد)، **الإسلام والحداثة**، سلسلة معالم الحداثة عن دار الجنوب للنشرن تونس 1998، ص 62
[19]- إنجيل يوحنا (ا، 18).

من تسلمه عن طريق وسطاء كثيرين يتمركز الآن في يسوع المسيح الذي هو في الوقت نفسه صاحب الوحي وموضوعه؛[20] فالوحي لا يستند إلى تعاليم مؤسس واحد، بل ينمو نموا مطردا قبل أن يصل إلى ملئه في ظهور المسيح[21] فيكون بذلك العهد القديم وكل ما سبقه من مظاهر الوحي الإلهي تمهيدا للوحي المسيحي. والمسيحي يعتبر هذا الأمر من المسلمات، فالوحي الذي ابتدأ مع بداية التاريخ انتهى في المسيحية. ولكن ما هو موقف ابن عاشور من هذه المسلمة المسيحية؟

تحضر مع ابن عاشور القراءة الإسلامية سافرة؛ فالإنجيل عنده هو الكتاب المقدس الذي أوحاه الله للنصارى عن طريق عيسى فيه تعاليم دينهم وأحكام الله وقد جاء مصدقا وناسخا للتوراة[22] والتوراة عنده أصل الإنجيل،[23] وهو ما يعني انخراط الإنجيل ضمن نفس الخط الذي رسمه أنبياء بني إسرائيل فيقع الإنجيل بذلك موقع الحلقة الوسطى بين التوراة والقرآن. فهو حلقة متممة لما سبق وفاتحة لما سيعقبها فيرى أن الإنجيل من المقدمات التي سبقت لتمهد لنزول القرآن الذي هو تمام مراد الله من البشر "إن الدين عند الله الإسلام" وهذا الرأي من الآراء التي ينتصر لها السواد الأعظم من المسلمين الذين يرون أن الخطة الإلهية اكتملت مع الإسلام الذي يمثل في نظرهم آخر الديانات السماوية وكل ما سبقه تمهيد وإعداد له. ولا غرابة في الأمر إذا ما اطلعنا على تاريخ الأديان بطريقة تجعله ممتدا في التاريخ منذ آدم إلى حدود قيام تلك الديانة. فالمسيحية قامت بتأويل العهد القديم، ثم جاء الإسلام فأول المسلمون الديانتين السابقتين. ودائما يكون الاتكاء على حجة أن الديانة السابقة يعتريها النقص وقيام الديانة اللاحقة ضرورة. وكل ديانة ترفع شعار أنها تمتلك الحقيقة. وابن عاشور لم يخرج عن هذا الخط، فنجده يقول: "إن الهدي الذي سبق القرآن غير تام"[24]. ويعقد مقارنة تفاضلية بين القرآن والإنجيل فيفضل القرآن. فالإنجيل عنده دون القرآن مكانة لذلك فضل الله هدي القرآن على هدي التوراة والإنجيل[25] وتحضر في ذلك لغة أنا أمتلك الحقيقة، في خفايا ذلك تكمن سياسة الدعوة، باعتبارها السياسة الإسلامية فالإسلام دين يقوم على الدعوة في مقابل المسيحية التي تقوم على التبشير. وكأننا بابن عاشور يدعو إلى الأخذ بالقرآن بحكم أفضلية هديه. فلا يوجد خطاب بريء في مجال الأديان فلكل منطوق خفي ومسكوت عنه، وهو في الحقيقة المحرك الرسمي للملفوظ، ولا يفهم الملفوظ إلا بالنفش في هذا المخبوء ومحاولة الوقوف عنده، وهو أمر يجعل التعامل مع النصوص التي تكتب في مجال الأديان تعاملا حذرا يتطلب التزوّد بروح المغامرة وعدم الاطمئنان إلى ظاهر المقول، ومحاولة سبر أغوار الملفوظ لغاية الفهم السليم. فأغلب الخطابات التي ينتجها رجل الدين خطابات مشحونة بسياسة الإبرام والنقض، وخاصة عندما تكون هذه الخطابات تتناول

[20]- **معجم اللاهوت الكتابي**، مادة "وحي".
[21]- **معجم الاهوت الكتابي**، مادة "وحي".
[22]- ابن عاشور م،ن، ج 9 ص 134
[23]- ابن عاشور م،ن، ج 3 ص 271
[24]- ابن عاشور م،ن، ج 3 ص 149
[25]- ابن عاشور م،ن، ج 3 ص 149

بالحديث مسألة من المسائل التي تخص الآخر المغاير دينيا. فيقوم بنقض ما هو سائد في عقيدة الآخر ويبرم الأمر، ليكون خادما لعقيدته فتكون بذلك التعمية وتغيب التغطية.

4– الإنجيل وإشكالية التبشير بمحمّد:

تكاد تجمع الدراسات الإسلامية أن الإنجيل حوى التبشير بمحمد. فما هو رأي ابن عاشور في المسألة؟ هل خالف سابقيه في هذه النقطة؟ وهل قدّم لنا وجهة نظر علمية أم أنّه اكتفى بانتهاج أسلوب التأويل الذي انتهجته الجماعة الإسلامية التي سبقته؟ وأقر ما أقرّته؟

الإنجيل عنده حوى التبشير بمحمّد،[26] وفيه ذكر لأصحابه.[27] ويرى أنّ عيسى ليس هو المخلّص المنتظر، وأنّ المنتظر هو رسول يأتي من بعده هو محمّد.[28] وهنا، لا بدّ من وقفة تأمّل في مستوى المصطلح المستعمل مصطلح "المخلص" لمعرفة هل يجوز إطلاق هذا المصطلح على رسول الإسلام محمد؟ ومدى إصابة ابن عاشور في استعماله له؟

بالعودة إلى تاريخ الأديان، وجدنا أنّ مصطلح "المخلّص" ذو جذور وثنية، ثم تبنته الديانة اليهودية فكانت عقيدة المسيح المنتظر، وهي مقولة استعارها اليهود من الزرادشتية[29]. فعندما ضعفت المملكة اليهودية وهزمها أعداؤها واضطهدوا اليهود راح هؤلاء يروّجون لظهور مخلص لهم يكون بطلا وطنيا من سلالة الملك داود يستطيع إعادة المملكة اليهودية كما كانت في أيام داود وسليمان.[30] ومن شروط هذا المخلص أن يكون من بيت داود.

وابن عاشور في نفيه لصفة المخلص عن المسيح وإلحاقها مقابل ذلك بمحمد، إقرار بأن المخلص الذي كان ينتظره اليهود هو محمد، بل ويقرها صراحة في قوله: "وقد أخبر عيسى بمجيء رسول من بعده، لأن بني إسرائيل لم يزالوا ينتظرون مجيء رسول من الله يخلصهم من براثن المتسلطين عليهم وهذا الانتظار ديدنهم، وهم موعودون بهذا المخلص لهم على لسان أنبيائهم بعد موسى، فكان وعد عيسى به كوعد من سبقه وفاتحهم به في أول الدعوة اعتناء بهذه الوصية".[31]

وبهذا يضعنا ابن عاشور أمام معلومة مفادها أن محمدا هو المخلص المنتظر الذي انتظره اليهود. فهو المسيح المنتظر! ولكن كان من شروط هذا المسيح المنتظر أن يكون من بيت داود أي أن يكون يهوديا وقد

[26]- ابن عاشور م،ن، ص 134 ج9 / ص 138 ج 9 / ص 183 ج 28
[27]- ابن عاشور م،ن، ص 38 ج 11
[28]- ابن عاشور م،ن، المصدر نفسه ج 28 ص 181
[29]- مظهر (سليمان)، **قصة الديانات**، الطبعة الأولى، الوطني العربي القاهرة – بيروت سنة 1974، ص 328
[30]- مظهر (سليمان)، المرجع نفسه، ص 328
[31]- ابن عاشور، م،ن، ج 28، ص 181

غاب هذا الشرط الأساسي في محمد. فهل تقبل اليهودي هذه الفكرة؟ والحقائق التاريخية تدل على أن اليهود لم يقبلوا الدعوة المحمدية وقد اتهموه بالتجديف والسرقة من التوراة وما هو إلا مسيح دجال.

وقد بنى ابن عاشور فكرة تبشير المسيح بمحمد على عدة مستندات إنجيلية. فيستند إلى قول عيسى في التبشير بمحمد "و قد تم وصف رسالة هذا الرسول الذي سيأتي بعده بأنها بشارة الملكوت ويستشهد في ذلك بقول عيسى كما ورد في إنجيل متى الإصحاح 11 "ويكن ببشارة الملكوت هذه المسكونة". إضافة إلى آيات أخرى في الأناجيل اعتمدها شأنه في ذلك شأن من سبقه من المسلمين، كحجج دالة على احتواء الإنجيل التبشير بمحمد، ومن هذه الآيات "وأنا أطلب من الأب (أي ربنا) فيعطيكم (فارقليط) آخر ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه. ثم قال: وأما الفارقليط الروح القدس الذي سيرسله الأب(الله) باسمي، فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم" ويفسر ابن عاشور ذلك فيقول: "أي في جملة ما يعلمكم أن يذكركم بكل ما قلته لكم وهذا يفيد تفضيله على عيسى بفضيلة دوام شريعته المعبر عنه بقوله: "يعلمكم كل شيء"[32] وفي ذلك يظهر منطق الإقصاء والتعالي؛ فالقول بأفضلية محمد على عيسى سيتبطن خلفيات فكرية أخرى مفادها أن الإسلام أفضل من المسيحية، وهي الفكرة التي تهيمن على كل فكر دوغمائي. وفي مقابل ذلك، نجد أيضا من المسيحيين من يتبنون نفس الحجة، فيقولون بأفضلية الديانة المسيحية على الإسلام، وهو موقف يقول به السواد الأعظم من أصحاب الديانتين في حين أن كل صاحب عقل علمي لا يركن لمثل هذه المفاضلة التي لا نتيجة لها سوى الصراع والتطاحن وكيد كل فريق للآخر ويتحول الدين إلى مصدر شقاء. فكيف يقبل المفاضلة بين نسقين ثقافيين لكل نسق ملابساته التاريخية والثقافية. والأمر هنا أشبه ما يكون بذلك الذي يفاضل بين الهندسة المعمارية لمنطقة تمتاز ببرودة طقسها، ومنطقة أخرى تمتاز بحرارة طقسها فيكون الشكل الهندسي للعمارة في ذلك المكان مستجيبا للتكيف مع طقسه، فالمفاضلة حينئذ فيها تعسف. فلا تجوز المقارنة بقدر ما يجوز البحث في طبيعة كل نسق ومحاولة فهمه وفك رموزه.

وعمل ابن عاشور بخلاف ذلك على تكريس ما عملت الجماعة المؤمنة السابقة له على تكريسه فحرص على البحث في الأناجيل عمّا يخدم فكرة التبشير بمحمد. فيستشهد بما ورد في إنجيل متى: "وجاء في إنجيل متى الإصحاح 24 قول عيسى: "ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرا ولكن الذي يصير إلى المنتهى، فهذا يخلص ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يكون المنتهى".[33]

[32]- ابن عاشور، م،ن، ج 28 ص 185
[33]- ابن عاشور م،ن، ج 28، ص 185

وبما ورد في إنجيل يوحنا الإصحاح 14: "إن كنتم تحبونني فاحتفظوا بوصاياي وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليطا آخر يثبت معكم إلى الأبد"[2]. ثم يقوم بتعريف كلمة "فارقليط" على أنها كلمة رومية تطلق بمعنى المدافع أو المسلي؛ أي الذي يأتي بما يدفع الأحزان والمصائب؛ أي يأتي رحمة؛ أي رسولا مبشرا، وكلمة أخرى صريحة في أنه رسول مثل عيسى[34]. ويضيف أيضا ما ورد في الإصحاح 15 من إنجيل يوحنا: "ومتى جاء الفارقليط الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي"[35] فابن عاشور يرى أن لفظ "فارقليط" المقصود به محمد، وهو هنا قد خالف ما هو شائع في الفكر المسيحي؛ فدلالة لفظ "فارقليط" كما وردت في بعض المعاجم لا تعني محمدا أو كائنا آخر، إنّما لها معنى واحد هو الروح القدس.[36]

والمستفاد من ذلك أن ابن عاشور لم يخرج عن النهج الذي اتبعه من سبقه من المسلمين، وخاصة اعتماد أسلوب التأويل يقول الأستاذ عبد المجيد الشرفي: "وواصل المسلمون تأويل ما ورد في الأناجيل من ذكر" المنحمنا أو البارقليط على أنّه محمّد، إذ هو مرسل من الله ويشهد لعيسى ولا تنطبق صفته على غيره ولم يرتضوا المقولة المسيحية التي تجعل منه "المحامي" و"المعزي" والأقنوم الإلهي في النظرية الثالوثية"[37]. ويضيف بأنه "لا غرابة في أن يقوم المسلمون بنفس عملية التأويل التي قام بها المسيحيون حين قرؤوا العديد من نصوص العهد القديم على أنها رموز وإيحاءات أو تصريحات بعيسى المسيح، مطبقين نصوص العهدين القديم والجديد على السواء على محمد. وأساس هذا التأويل اعتبار الإسلام متمما لليهودية والنصرانية والقرآن مفتاح التوراة والإنجيل لا يفهمان حق الفهم إلا على ضوئه ولا معنى صحيحا لهما إلا ما ناسبه ولم يكن نقيضا لتعاليمه".[38]

*** التأويل والتعارض:**

ما نخلص إليه مما سبق أنّ ابن عاشور قدم المفهوم الإسلامي للفظ "فارقليط"، وهو مفهوم مبنيّ أساسا على التأويل، وهو ما يتعارض والمفهوم المسيحي الذي لا يرى أن كلمة "الفارقليط" تعني "أحمد" ولا أوصاف الفارقليط فيه يمكن أن تعني "محمّدا" أو بشرا على الإطلاق[39] ويعلق الأستاذ الحداد "ولكن في نقل الكلمة اليونانية بحرفها إلى العربية "برقليطس" ضاعت القراءة اليونانية الصحيحة، وجاز تحريف المعنى إلى

---

[34]- ابن عاشور م،ن، ج 28، ص 185
[35]- ابن عاشور م،ن، ج 28، ص 185
[36]- انظر: L. Bouyer : dictionnaire théologique page 49
[37]- الشرفي (عبد المجيد): الفكر الإسلامي في الرد على النصاري، ص 482
[38]- الشرفي (عبد المجيد)، م، ن، ص 480
[39]- الشرفي (عبد المجيد)، م،ن، ص 482

"أحمد" فقولوا الإنجيل ما لم يقله"[40] وحجتهم في ذلك أن أوصاف الفارقليط لا يمكن أن تطبّق على مخلوق فكيف يطبقها المسلمون على بشر الرسول؛[41] فالأوصاف التي نسبت إلى الفارقليط تدل على إلاهيته... فالفارقليط يقيم مع تلاميذ المسيح إلى الأبد وليس هذا في قدرة مخلوق. هذا إضافة إلى كون الفارقليط هو "روح الحق"؛ أي روح الله، وهو أيضا روح المسيح لأن المسيح وصف نفسه "الحق" (يوحنا 14: 6) فهو روح الله وروح الحق ومن الكفر نسبة هذه المصدرية إلى مخلوق. والفارقليط يتمتّع بطريقة وجود الله في كونه وعالمه: أي الوجود الخفي بذلك لا يستطيع العالم أن يراه.[42]

وهكذا يظلّ ابن عاشور حبيس القراءات الأولى، ولم يقدم إضافة فيما يخص مسألة التبشير بمحمد في الإنجيل، بل كل ما قام به أنه اكتفى بتدعيم الفكرة التي تتواترها الأجيال الإسلامية، والتي قلنا إنها نابعة أساسا عن تأويل ما ورد في الأناجيل في أن المقصود بالفارقليط الرسول محمّد. والعملية ليست عفوية أو بريئة، وإنما لها خلفياتها فكأننا به وشأنه في ذلك شأن الذين سار على نهجهم، والذين يسيرون على نهجه يبحثون عن مشروعية الرسالة المحمدية داخل النصوص السابقة، وبالتالي البحث عن الإسلام المبثوث في تلك الديانات السابقة اعتمادا على مقولة: "وإنما الدين عند الله الإسلام".

الإنجيل ومسألة التحريف:

من المسائل التي تستوقفنا ضرورة عند حديثنا عن الإنجيل في قراءة ابن عاشور مسألة التحريف. فما هو رأيه في هذه المسألة؟ وهل قدّم إضافة؟ أي هل كانت له رؤيته الخاصة أم أنه اكتفى بترديد ما قاله الأوّلون؟ وهل يظفر القارئ بالإجابة عن الأسئلة التي قد تخامر ذهنه مثل:

- ما هو مدى ذلك التحريف؟ هل شمل كامل الإنجيل أم بعض فقراته أم بعض الكلمات والألفاظ فحسب؟
- ما هو نوعه؟ هل هو تحريف للنصّ ذاته أم يتعلق بقراءته أم بمعناه وتأويله؟
- ومن المسؤول عنه والفريق الذي قام به؟ هل هم فئة من اليهود فقط أم من النصارى كذلك ؟
- متى حصل هذا التحريف؟ أفي عهد عيسى أم في عهد الرسول محمد فحسب أم هو ما يقومون به باستمرار ؟

[40]- الشرفي (عبد المجيد)، م،ن، ص 480
[41]- الأستاذ الحداد، **في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي**، ص 367
[42]- الأستاذ الحداد، المرجع نفسه، ص 367

لنخلص من هذا كله إلى محاولة معرفة المستندات التي اعتمدها ابن عاشور. وهل كانت مستندات علمية أم دينية وثوقية؟

لم يتجاوز ابن عاشور أثناء حديثه عن الكتب المقدسة السابقة للقرآن مسألة التحريف، إنما وقف عندها. فالإنجيل عنده لحقه التحريف والاستخفاف بشرائعه[1]. ويعرّف التحريف بأن أصله مصدر حرف الشيء، إذا مال به الحرف، وهو يقتضي الخروج عن جادة الطريق. [43] ثم يذكر عدة وجوه من وجوه هذا التحريف تتجلى في ما يلي:

- التحريف بتلبيس الحق بالباطل؛ أي بتلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة حتى ارتفعت الثقة بجمعه.[44]
- التحريف بتغيير الكلمات وبتبديلها بكلمات أخرى لتوافق أهواء أهل الشهوات في تأييد ما هم عليه من فساد الأعمال.[45]
- التحريف بالغلو في الدين.[46]
- التحريف بالافتراء الشنيع.[47]
- التحريف بالإخفاء أي إخفاء ما ورد في الكتاب من حقائق.[48]
- التحريف بإبعاد الكلام عن مواضعه؛ أي إزالة الكلام الأصلي سواء عوض بغيره أو لم يعوض [49]

وينتهي إلى الإقرار بأن هذا التحريف يمثل مبررا كافيا للقول بانتهاء هدي التوراة والإنجيل، يقول : "لكي لا يتوهم أن هدي التوراة والإنجيل مستمر بعد نزول القرآن".[50]

وينتهي بنا الأمر إلى عدّة استنتاجات نذكر منها ما يلي:

1- أنّ القارئ لا يظفر بجديد في المسألة فلا فرق عنده سواء اطلع على الدراسات القديمة التي مرّت عليها آلاف السنين أو على فكر ابن عاشور، وهو يعيش في القرن العشرين؛ أي أنه يعيش في فترة من الزمن تغيرت

[43]- الأستاذ الحداد: **في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي**، ص 367
[44]- الأستاذ الحداد، المصدر نفسه ص 368
[45]- ابن عاشور، م،ن ،ج 27 ص 427
[46]- ابن عاشور، م،ن ،ج 1 ص 147
[47]- ابن عاشور، م،ن ،ج 3 ص 279
[48]- ابن عاشور، م،ن،ج 4 ص 75
[49]- ابن عاشور، م،ن ،ج 6 ص 50
[50]- ابن عاشور، م،ن ،ج 6 ص 51

فيها العديد من المعطيات والظروف، وأعلن فيها العقل ولو نسبيا تحرره من سلطة المقدس وهيمنت فيه الروح العلمية على الدراسات اللاهوتية. فمثلا وعلى حد عبارة الأستاذ عبد المجيد الشرفي : "ويقينا أن موضوع التحريف لا يمكن أن يوضع الآن كما كان يوضع في الماضي، لأن الكتب المقدسة عند الطرف المقابل غذاء روحي له لا يفيد استنقاصها شيئا ولا يمكن إنكار الآثار الخلقية الإيجابية التي تتركها في نفوس المؤمنين بها، ولأن الجدل قد بان عقمه والمماحكة قد تجاوزها الزمن فأصبحا لا يرضيان الباحث الذي يرفض التقيّد بأطر معرفية ضيقة ويتوق إلى معرفة الحقيقة أينما وجدت وأخيرا، لأن النقد الحديث قد أثبت أن العملية التي أفضت إلى وضع الأناجيل ليست شبيهة بعملية جمع القرآن وتدوينه ومن الضروري أن يكون المقياس في الحكم لصحة الكتاب المقدس أو عليها ملائما لخصوصية ذلك الكتاب".[51]

2- أنّ الأحكام التي أطلقها ابن عاشور في مسألة التحريف كانت تفتقر إلى الحجة الواضحة، وهو ما يجعلها أحكاما مطلقة لا تستجيب لشروط المعرفة الحقة في هذا المجال. "فإشكالية القول بالتحريف إشكالية معقدة جدّا، ولا أظن أكثر المسلمين قادرين على حلّها من غير اللجوء إلى لاهوتهم أي القرآن. وهذا الحل بطبيعة الحال غير مقبول في الدراسات الدينية العلميّة. وذلك لأسباب بسيطة منها أن الكتاب المقدس قد تمّ الانتهاء من تدوينه قبل الإسلام بأربعة قرون، حيث وقع اختيار النسخة القانونية (La version canonique) فمن العبث أن نقول إنّهم حرفوا كتابهم لأجل الإسلام أو لتغطية على نبوّة محمد (ص)".[52]

3- أمام هذا الإقرار بتحريف الإنجيل يضعنا ابن عاشور أمام سؤال محيّر: كيف يسعى ورغم الاعتراف بأن الإنجيل قد لحقه التحريف إلى الاستشهاد ببعض آياته في عدّة مواطن، وقد تعرضنا لذلك أثناء الحديث في مسألة التبشير بمحمد؟

فهل يستشهد بمحرّف؟

خاتمة:

تظلّ صورة الإنجيل مثارا لعدّة أسئلة داخل الثقافة العربية الإسلامية؛ أي داخل ثقافة مرجعها النصّ. فرجل الدين عندما يتحدّث عن الإنجيل يكون منطلقه ومرجعه النصّ القرآني، مما يجعله يسقط في الإملاءات العقائدية. فصورة الإنجيل حافظت على ملامحها وكأن البعد الزمني لا دخل له ولا تأثير. وظلّت العقول الإسلامية تجتر نفس الصورة. وأجبرت العقول على الاشتغال داخل خانة واحدة وبنفس الآليات، فابن عاشور وهو ابن القرن العشرين لم يضف إلى قارئه شيئا، بل كان ناقلا أمينا للقراءة السلفية. فعندما حاولنا تتبع صورة

[51]- الشرفي (عبد المجيد)، **الفكر الاسلامي في الرد على النصارى**، ص 426
[52]- جالو (حسن سعيد): المسلمون بين الحاجة إلى الحوار مع الذات ومع الآخر، مجلة الحياة الثقافية السنة 30 العدد 121 جانفي 2005، ص 33

الإنجيل في فكره لم نتوصل إلى الوقوف على صورة جديدة تدل على تغيّر وبحث، بل كل ما طالعنا تلك الصورة الإسلامية الباهتة للإنجيل. فالقارئ لا يعرف عن أي إنجيل يتحدث ابن عاشور هل يتحدث عن الإنجيل بعهديه القديم والجديد ومجموع رسائله؟ أم عن العهد الجديد دون القديم؟ أم عن الأناجيل القانونية منها أم غير القانونية؟ هل أثار بعض المشاكل الخاصة بالإنجيل، مثل مشكل الكثرة والاختلافات والتدوين...؟ ولماذا لم يتوقف عند الجماعة التي قامت بتأليف الأناجيل؟

وينتهي بنا الأمر إلى الإقرار بأنّ ما قام به ابن عاشور أثناء حديثه عن الأناجيل لم يكن في حقيقة الأمر إلا عرضا للصورة التي يمليها النص الثقافي العربي الإسلامي. فقدم لنا إنجيلا مخالفا للإنجيل المتحدّث عنه في المسيحية. مما يدفع بنا إلى طرح السؤال بحثا عن مبررات شافية تغنينا قلق السؤال المحير لماذا؟ أجهل أم تجاهل؟ وقد يهون الأمر علينا، وإذا ما عرفنا بأن المتحدث رجل دين ولسنا أمام باحث أو رجل علم يعرف ماله وما عليه. ونحن نعلم أن مهام رجل الدين تنحصر عادة في محاولة البحث في ديانة الآخر عن مبررات لأفضلية ديانته ولمشروعيتها ولا يبيح لنفسه النظر للآخر وبديانته إلا من الكوّة التي تبيحها له شريعته فتصبح للمفاهيم تأويلات مغايرة. وقد لمسنا ذلك جليا في صورة الإنجيل، فابن عاشور لم يقدّم لنا "الإنجيل" كما هو في الديانة المسيحية، وإنّما قدّم لنا الإنجيل كما يصوّره الإسلام.

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com